

فَقِيرٌ فِي بَلَاطِ الْحَمْرَاءِ

❖ الأسرار السبعة في الحس والخيال والإبداع ❖

بقلم خوسيه ميغيل بويرتا

البيروودور كلي

سقا من الدنيا وزخرفها .

هذه عِلَّتِي .

إبن جعفر القونجي

ثناء صعود مضمّن إلى تل السبيكة، كان ابن جعفر القونجي غارقاً في حالة من الحيرة تلاحقه منذ أن عاد ليلة أمس من رحلة إلى أقطار المشرق كادت تقتلعه من مسقط رأسه إلى الأبد. إقتصر استراحة ابن جعفر على ساعتين قضاها على تخت في فندق سوق المدينة. أيقظ حاجب مولانا الحاجّ العائد فجراً ليقوده إلى حضرة أمير المسلمين. بعد ثلاثة عقود ونيف من الغياب لم يعد ذلك الشاب الذي غادر يوماً إقليم غرناطة بحثاً عن عين الشمس والبهاء وربما هارباً من تفاهة السلطات وتعسف تصرفاتها. الآن، وهو يمتطي بغلة حاجب السلطان في اتجاه السبيكة، يشعر بأن العالم من حوله أشد غرابة مما كان في أي وقت مضى. ما جدوى العودة إلى مدينة تغيرت إلى حضرة تفور في أحيائها الضيقة المسوّرة أسراب هائلة من الأرواح أتت من كل أنحاء المعمورة فأرّ من الوباء الأسود اللعين الذي امتد ظله في الآونة الأخيرة كذلك إلى معقل بني نصر، حسبما أخبر عنه القونجي في إفريقيّا لحظة ركوبه البحر نحو الأندلس؟ ما أنعس الإنسان الذي لا يتحرر من الحنين الدائم إلى الأصل والجدور! أذهلته الحركة الجنونية التي عمت مدينته القديمة، فبالإضافة إلى ذهاب

واياب الناس في الأسواق وهرولة الرجال والنساء والأطفال نقلاً للمرضى إلى البمارسطانات والبيوت في حالة إستنفار قصى تم الإعلان عنها في المملكة كلها لمواجهة الوباء، تهب أفواج غير معهودة من الجنود والرجال المسلحين في كل زوايا غرناطة. فاجأه أيضاً انتشار أعمال البناء في المدينة، لا سيما في السبيكة التي لا يعرف لها منذ شبابه إلا بروج القصبه وأسوارها وبعض المباني اللاحقة المتواضعة. في هذا الصباح البارد، باغته تراكم البروج المرتفعة في نقاء السماء [صورة 1]، وخالج قلبه إحساس يتضارب فيه التخوف والإعتزاز بما يومئ إلى عظمة مدينته الصغيرة التي كانت قد استنزفت نفسها في أحوال الفتنة مراراً. توقفت البغلة لإسترداد الأنفاس في عتبة باب الشريعة واختلس راكبها العجوز نظرة تعجب واندهاش إلى المبنى [صورتا 2-3]. ينبس حاجب جلاله مولانا بكلمة لأول مرة: "نستعجل في استكمال البوابة العظيمة للإحتفاء بديانتنا المجيدة في عيد مولد النبي -صلى الله عليه وسلم- الوشيك". تمادى القونجي في مطالعة الكتابة المنحوتة بخط عربي أنيق على ثلاثة لوائح رخامية عريضة، بينما عكف ثلاثة عمال على تعليقها في المدخل على مقربة من صورتى الكفّ والمفتاح المنقوشتين فوق قوسي الباب حمايةً للمكان وتقديساً له:

✧ أمر ببناء هذا الباب المسمى بباب الشريعة، أسعد الله به شريعة الإسلام، كما جعله فخراً باقياً على الأيام، مولانا أمير المسلمين السلطان المجاهد العادل أبو الحجاج يوسف ابن مولانا السلطان المجاهد المقدّس / ابي الوليد بن نصر، كافأ الله في الإسلام صنائعه الزكية وتقبّل أعماله الجهادية، فتيّسر ذلك في شهر المولد المعظم من عام تسعة وأربعين وسبعمائة، جعله الله عُدّة واقية وكتبه في الأعمال الصالحة الباقية ✧

ما أن استأنف القونجي سيره على ظهر بغلة الحاجب لولوج الباب، حتى التقى نظره بنظر رجل قصير القامة يشابهه في العمر والملامح ألهمى للتوّ عن منح التعليمات لصنّاع الكتابة ليقبّل قدمي الحاجّ العائد والدموع تدرّف من عينيه:

- أأنت حقاً؟ أأنت أبو عبد الله ابن جعفر زاهد قونجة من إقليم غرناطة؟ أيها الأخ الشارد، لقد نفذ صبري في رؤيتك ثانيةً قبل مبارحتي هذه الدنيا.

ضم ابن جعفر الرجل بشدة ومضيا على رجليهما إلى بلاط الحمراء. ذكريات طفولة ومراهقة مشتركة في الكتاب والأرياف وأزقة المدينة تهتاج في قلوبهما. أعلم القونجي قريته العزيز، رضوان المهندس، بإيجاز لم يعتد عليه في أيامهما أن الله تعالى سمح له بأداء فريضة الحجّ وأن القدر كتب له إقامة هادئة ومثمرة في الشّام ومصر حيث قرأ لكبار مَشِيخَة العهد، أمثال تاج الدين بن عطاء الله الإسكندري، وأنه أصبح بستانياً لكسب رزق زوجة وابنة وعبادة البارئ تأملاً بعجائب خلقه. ودّع الحاجب زاهدنا القونجي قدام فتحة مقوسة اختفى فيها المهندس رضوان بانحناءة خفيفة: "سأعود إليك بعد صلاة الظهر لأجعلك تمثّل بين يدي مولانا، نصره الله"، قال رسول السلطان للضيف العجوز. هزّ القونجي الرأس ايجاباً ومودّعاً ودخل بيت المهندس الواقع بين المدينة التي نشأت في هضبة السبيكة وبين القصر الملكي الجديد قيد البناء. تعجب القونجي حالاً من المشهد في الداخل تعجباً شديداً: مئات الرسوم والتخطيطات الهندسية من كل الأنواع والأحجام تشغل الحيطان ومصطبة طويلة في قاعة واسعة تضيئها شبابيك عالية رقيقة [صورتا 4-5].

– أما تزال أيها الرفيق المسكين هائماً في ألعايب الألوان والأشكال؟!

صاح القونجي بلطف وهو يشاهد مجدداً، بعد مدة تعادل عمراً، ذلك البريق الناجم عن عيني صاحبه في لحظات السعادة والإبداع. تسرع المهندس في إظهار تصاميمه الأخيرة للرفيق الضال: سلسلة من النجوم الهندسية تمثل السماوات السبع المذكورة في الكتاب الكريم مرسومة لصناعة القبة الخشبية العليا في قاعة عرش مولانا أبي الحجاج يوسف أمير المسلمين. كان رضوان مهووساً فعلاً بالفكرة. جعل يمدد ورقة بعد أخرى أمام عيني ابن جعفر واستغرق في الكلام قبل أن يكمل قريبه العائد رواية رحلته إلى الشرق:

– يا أخي الزاهد الحاج، دأبت طوال العمر، وأنت تعلم، دأبت من أجل إستخراج أروع الصور الكامنة في خلق عز وجل. وبمقدوري اليوم أن اعلن لك أنني بلغت الغاية التي طالما حلمت بها. لقد ترحم علي تعالى بمعاني إلهامه الرقيقة. لاحظ! في بدء الأمر، رسمت الأشكال الهندسية لأنجم السماء كلها. كادت هذه المهمة أن تودي بحياتي. لمعلمينا خبرة طويلة في صناعة الهندسة ولم يعد الكشف عن تشكلات هندسية جديدة معتدلة ومتناسبة وجميلة أمراً يسيراً على الإطلاق. أنظر يا أخي: لأول مرة تجرأت على تخطيط صورة هندسية متكاملة اعتماداً على أنماط نجمية ذات زوايا مختلفة [صور 6-9]. رسمت أنجماً ذات ستة عشر زاوية متنوعة التصاميم مع أنجم ذات ثماني زوايا متباينة أشكالها أيضاً لتصوير المقامات النجمية السبع في لوحة سماوية متناسقة وموحدة. على ما أعلم، لم يفعل هذا مهندس آخر من قبل. وأهم من ذلك، لاحظ كيف غيرت في أركان القبة الأربعة التنظيم الهندسي المفروض في علم العدد بهدف صياغة شجرة الكون [صورة 10] التي كان شيخنا أبو بكر محمد الرندي يحدثنا عنها في المدرسة في خصوص قوله تعالى: ﴿كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربِّه﴾ [سورة ابراهيم، 24-25]. انه ابتكار من ناحيتي، أعني أنني بذلت قصارى جهدي لدمج شجرة الكون في انسجام تام مع كافة نجوم قبة العرش هندسةً وتلويناً.

تذكر ابن جعفر بحنين تلك الأيام الغابرة وتمثلت في ذهنه صورة [صورة 11] من مخطوطة كانت بحيازة عارف من عرفاء الفرس لاقاه القونجي بدمشق قبل أن يسحق قلبه شوق العودة إلى ما تبقى من الأندلس. ودون أن يسمح رضوان لصاحبه بأن يسأله إن كان قد اطلع على هذه الصورة المخطوطة عن شجرة طوبى أو على صورة أخرى من هذا القبيل، أردف المهندس قائلاً:

– المهم يا أخي الكريم أن مولانا أبي الحجاج يوسف إمام صالح وطلب مني اللجوء إلى نصوص الأولياء لبناء قبته العليا لتخييل سورة الملك العزيزة تخيلاً جليلاً. إنه صاحب الفكرة مثلما هو صاحب أعمارنا. نصح أيضاً جلالته بتتويج سمائه الخشبية بقبة صغيرة خلاصةً عن القبة الكبرى شكلاً ولوناً. وهذا ما عملناه. تعال، أنظر الى النتيجة.

أخذ المهندس إلى الحجر المجاورة ولم يستطع ابن جعفر كبت صرخة اعجاب سائتة حينما رمق صورة القبة مجسدة بكل رونقها في نموذج ورقي [صورة 12] لا يبلغ المتر المربع [1,06 x 0,75 م] على منضدة جنب سرير باند صغير ملقى على الأرض.

– لكل لون سر سماوي وإشراقي خاص –تابع المهندس مندفعاً في التفسير–. اخترت، اخترنا، الأبيض والأحمر والأخضر بتدرجاتها النغمية من المنير إلى القاتم وفقاً لأوصاف أهل الولاية بالجنة السماوية ومعراج النبي. كما تعلم، وتبصر،

النور الإلهي يفيض في الكون مضيئاً ومحياً كل المخلوقات. استخدمت، استخدمنا، الأبيض الصافي المشرق مرة واحدة وفي الوسط وحسب، وآثرنا الأبيض الجوزي لمراكز أنجم المرتبة الثانية تحت قمة العرش السماوي رمزاً إلى انعكاس النور الإلهي الفائض على الدوام. مراكز النجوم الثانوية تمثل منازل السعداء، وهي بالتالي أقل إضاءة وأضعف إشراقاً من منزلة سبحان وتعالى. أما أسفاط النجوم الأخرى، فقد صبغناها بثلاث نغمات من الأحمر وثلاث نغمات من الأخضر على غرار ما جاءنا من المتألهين عن طبيعة الجنة السماوية وصورتها. إنما الخالق جلّ جلاله كرم هذه المواد النفيسة بفضائل النور والكمال والخير والخلود. أنت أعلم مني بأن هؤلاء العلماء أسهبوا في مقارنة منازل الجنة السماوية بالأحجار الكريمة، خصوصاً اليواقيت الصفراء والخضر والحمراء. النتيجة مذهلة، هل توافقني؟ لو رأيت السقف الحقيقي رهن الإتمام...! تصوّر، ضلع قاعدة القبة المربعة المبنية بالخشب طوله 11,30 متراً، وعلو السقف يصل إلى 18,20 متراً! أعلم أن قطر أكبر النجوم المصنوعة يساوي 2,50 متراً وأن إجمالي الأسفاط الخشبية المستخدمة في تشييد القبة هو 8017 قطعة، لا أكثر ولا أقل! أليس كل هذا التخطيط الهندسي بما يتضمنه من معانٍ سامية وشريفة جديراً بتزيين قاعة عرش مولانا في حوض أشمخ بروج العصر وأوسعها سمعةً بارتفاع يتعدى 45 متراً! [صورتا 13-14].

ابتسم ابن جعفر دون أن يلفظ ببنت شفقة بينما شال من الآراء المتناقضة تدفق في رأسه واجتاح جسمه المسن والمنحني إلى الأرض. تذكر مطالعاته الحامية لفصول شجرة الكون والجنة والإسراء في مجلدات جمعها بعناية في شبابه الثاني بالشام. تعود آنذاك على ترويح نفسه والإلتذاذ بتأمل النجوم والكواكب في سماء الله الشاسعة، اللامتناهية، وعلى الرغم من أنه يستحسن تلك التصاميم المثيرة والمتعة التي يتفنن في اختراعها الصناع والمهندسون، إلا أنه يعتبرها مجرد استعارة تعبسية عن علياء البارئ تعالى. خلال تأملاته الليلية الساكنة في مزرعة الشام انتابه أحياناً شوق جامع للتعبير الشعري أو الغناء أو الرقص، لكنه تحكم دوماً بزمام رغبته للإكتفاء بتجربة المشاهدة الحميمة المنفردة.

ظهر الحاجب ووضع حداً لتفكير القونجي بإشارة يد مستعجلة ملحاً على الذهاب فوراً إلى القصر الملكي. بعد قطع ساحتين، اجتاز الحاجب والزاهد الحاج الشارح الملكي وتوغلا في متاهة من الممرات الضيقة والمتوتبة تفصل الواحدة عن الأخرى بوابة خاضعة لحراسة مشددة. وصل الرجلان إلى ما بدا للقونجي أنه باحة رحيبة قيد التشييد، وبعد عبورها وجد نفسه في قاعة لم ير لها مثيلاً في حياته ضخامة وعلواً ومهابة. في الداخل انخفض وضوء أعمال البناء المنتشرة في كل أنحاء القصر وتل السبيكة، ولكنه بقي على مسمع من أصوات زمرة جنود قريبة وصرخات دعر نائية عزاها ابن جعفر إلى كابوس الوباء المنقشي نحو حرم البيت الملكي ذاته. تجلى الملك في اللحظة على منصته في وسط الحائط الشمالي لقاعة العرش [صورتا 15-16]. حدّق مولانا ملياً في وجه الشيخ ابن جعفر القونجي. ثم بادره بالتحية وأبدى لضيفه اهتمامه بالأمور الروحانية، اهتمام اشتد في قلبه في هذه الظروف بالغة الخطورة التي أرادها القدر للأندلس. استدعى السلطان زاهدنا القونجي لرواية العجائب التي شهدتها في ترحاله الطويل، وأخبره عن حضور فئة من فقراء خراسان من بلاد الفرس في ربوع غرناطة وأن عز وجل سمح بأن يشيع التقشف والتزهّد والتصوف في مملكته.

كان القونجي قد دُعي غير مرة لزيارة بلاط الملوك في المغرب والمشرق، وفي مثل هذه الحالات يستولي عليه دائماً إحساس غامض بالحذر والتحفظ والخيفة، ويكتسح روحه اشتياق عميق إلى بستانه في مزرعة دمشق. بعد برهة صمت قصيرة، لبى القونجي طلب أبي الحجاج يوسف بخشوعه الدائم وإقتضاب. ما أن اختتم ابن جعفر كلامه حتى تقدم ذو الوزارتين ابن الجيباب، وهو أصغر من القونجي بعشرة أعوام وتمكن من التوفيق بين الوظائف السياسية وأسفاره كتابع نشيط للناسك أبي عبد الله الساحلي المالقي، واستأذن السلطان لإنشاد القصيدة التي نظمها لنقشها في قبة العرش كي يكون زاهد قونجة العائد على علم بمقاصد أمير المسلمين النبيلة. صفّق الملك لعرض شاعر البلاط وشرع يقرأ الوزير:

هي القبة العليا ونحن بناتها	ولاكن لي التفضيل والعز في جنسي
جوارح كنت القلب لا شك بينها	وفي القلب تبدو قوة الروح والنفس
وإن كان أشكالي بروج سمائها	ففي عدا ما بينها شرف الشمس
كساني مولاي المؤيد يوسف	ملايس فخر واصطناع بلا لبس
وصيرني كرسى مُلك مؤيد	علاه بحق النور والعرش والكرسي

خلال استماعه إلى صوت ابن الجياب المجلجل والمائل إلى الخشونة، رفع ابن جعفر البصر نحو القبة العليا وازداد شعوره بالهيبة إزاء عظمة المكان وجلالة أشكاله. وقع بصره على عامل كان يطلي بالأبيض أحرفاً كبيرة منحوتة في قاعدة القبة الخشبية وابتدأ القراءة، ثم استحضر الآيات الكريمة المنقوشة عن ظهر قلب: ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ○ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور ○ الذي خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ○ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسيب ○ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير﴾. تمظهرت آنئذ أمام عيني ابن جعفر نماذج رضوان الهندسية بأصباغها المشعة الساحرة وامتزجت في مخيلته بالقبة الخشبية الضخمة والشامخة التي كانت في انتظار عملية التلوين الشاقة والدقيقة [صورتا 17-18]. تبسم ابن جعفر من الداخل لأنه يعي الآن وعياً تاماً إلى أي مدى تحققت الأحلام الإبداعية لصديقه رضوان، ذلك المفسر الهندسي لكتاب الله المصاب بحمى التصوير. وجّه القونجي البصر إلى الجدران علواً بهزة رأس خفيفة ووجد نفسه وجهاً لوجه أمام شعار بني الأحمر "ولا غالب إلا الله" المشكلة بحروف جيبسية كبيرة. لم يرها منذ صباه، بيد أن طول العمر لم يقدر أن يمحو الذكريات المؤلمة المرتبطة بهذه الصورة الكتابية. أهبط ابن جعفر النظر قليلاً واصطدمت عيناه بإعلانات ملكية أخرى بهية المظهر بل مغالية في المغزى لقلب زاهدنا الحساس: "النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبي الحجاج أمير المسلمين"، "عز لمولانا السلطان الملك المجاهد أبي الحجاج عز نصره"، فحنى جسده نهائياً إلى الأسفل دون أن ينظر إلى محيا السلطان المترعب أمامه على العرش. بعد هنيهة، إنتبه أبو الحجاج يوسف إلى أعراض الإرهاق المتغلبة على بدن ضيفه العجوز وأمر الحاجب بإهدائه نسخة من الأرجوزة "كتاب ابداء الملاحه وانهاء الرجاحة في أصول صناعة الفلاحة" [صورتا 19-20] للشيخ الفقيه والعالم المري ابن ليون التجيبي الذي قضى نحبه في تلك الأيام من جراء الوباء، وودع الفقير القونجي بحفاوة وبدعوة للمشاركة بعد صلاة الغروب في سهرة الذكر التي ستقيمها طريقة بني سيدي بونة ليلاً في موضع فناء القصر قيد البناء في عتبة برج وقبة العرش. أوضح الملك للقونجي أن طقوس هذه الطريقة القادمة من شرق الأندلس والمستقرة في حي البيازين صارت عادة في بلاطه تسبيحاً لله تعالى ولنشر الكرامات على الجميع وحماية الخاصة والعامة من مكاييد الوسواس اللعين.

– سوف ننتفع نحن أيضاً من كرامات زهدك النبيل ومن خطابك الحكيم، أضاف الملك بينما كان حاجبه ينكب على مساعدة القونجي للوقوف ومغادرة قبة العرش.

في أصيل تلك الأمسية الغرناطية البديعة، قرر ابن جعفر مواصلة مشواره إلى قرية قونجة بإقليم غرناطة وبعث برسالة

اعتذار إلى السلطان أبي الحجاج. كان القونجي يخشى أن التعب والسن والمرض وشراسة الوباء تمنعه من تحقيق غرض عودته المبهم: مشاهدة بستان صباه وتنقية الروح قبل لفظ نفسه الأخير.

إنضم إلى موكب ابن جعفر المتوجه إلى إقليم غرناطة كل من رضوان المهندس والشيخ أبو البركات البلقي الذي قرأ له القونجي خلال إقامته بمدينة المربة قبيل الاغتراب. كان القونجي يكنّ لهما محبة خاصة ورفقتهما أفرحت انتقاله إلى الدار الحجرية القديمة التي تركها قبل عمر كامل بين أشجار الليمون والبرتقال على حافة نهر دوركر في الإقليم. بعد وصول الموكب إلى قونجة فجراً، رحّب أهل المكان بالحاجّ وأصحابه بحرارة ورافقوهم إلى جنة ابن جعفر. الإستراحة ومشاهدة أشجار الجنة التي لا زالت راسخة في ذاكرته، بالإضافة إلى سماع هدير مياه النهر، والشمس، وذلك الصفاء الأزرق في السماء، كل ذلك أعاد لزايد الإقليم جزءاً من طاقته الطبيعية المفقودة وخاض في حوار مرح مع رفيقيه خلال النزهة التي قاموا بها في الحقول المجاورة. شهد القونجي أن الضيعة امتدت قليلاً إلى تل صخري شديد الإنحدار مطل على نهر الإقليم وأن برج الطلائع وحسن دوركر قد رما [صورتا 21-22]. قعدوا في ظل برج الطلائع على مرأى من أروع مناظر وادي الإقليم المزركش بالمزارع والهضبات الخضراء والضياع البيضاء الصغيرة الجاثمة في أسفل جبال شلّير المتسامية إلى السماء برداءها الساطع السرمدي. بعد المشاهدة واسترجاع النفس، تابع ابن جعفر حديثه الحار مع رضوان:

– أرباب السلوك الحقيقيون هم اللذين يتخذون الكتابة تجربةً للحياة... السماع عندهم وسيلة للإتصال، مثلما يمارسون الشعر لإعادة خلق اللغة وإيجاد سبل جديدة للتعبير عن الذات وفنائها في المطلق.

– ألا يوجد في صنائع الرقش والتزويق والخط شيئاً من هذا النوع؟ ألا نضيف جمالاً إلى جمال الدنيا؟، سأله المهندس.

– بطبيعة الحال! لغة الصور مرآة قابلة لكل المعاني. أنت أدري مني بذلك. ولكن ما لا يقبل به قلبي هو التفنن في الإبداع تعظيماً للملك الزمان.

– الصانع يعمل من أجل عقيدتنا، وقوة مولانا أمير المسلمين قوة الإسلام. الأعداء في هذا الأوان كثر. وأنت أدري مني بذلك.

– الآونة بأجمعها خاطفة، هاربة. للأسف، لا يوجد في عهدنا ولو ملك يستحق لقب أمير المسلمين.

– مولانا ابو الحجاج يوسف صالح، بل وعارف.

– قد يكن أصلح وأعرف من أجداده، لكنه فإن ويتولى الحُكم في الدنيا وهو بالتالي مجبر على الخطاء والظلم. ألا يتألم بنو آدم في سجون القصر؟

– الشريعة تفرض العقاب. إنه عادل ومبانيه يفتخر بها الإسلام كله.

– قد تكون بناياته رائعة، عجيبة، ولكن الملك علّق عليها اسمه واسم سلالته يميناً ويساراً، شمالاً وجنوباً. إنه ممل، ومزعج، بل ومخل بصفاء القلب والمشاهدة. من يحرّر شعر قلبه في طريقه المديد إلى النور، يصفي ذاته ويصقلها وقد يرتقي إلى المعرفة. ولكن من ينقش الشعر في جدران السلاطين لا يبحث إلا عن سمعة عابرة إما له أم لمولاه أو للإثنين معاً.

– انت لم تتجرأ أبداً على مخاطرة الحياة من أجل الشعر أو الطرب أو التصوير...

– صحّ، لكل مره ضعفه. لا أرى نفسي قادراً على مواجهة هذا التحدي، ولكنني تجنبت دوماً منح أفكاره أو كلامي للطغيان أو لخداع المساكين.

– مولانا لا يحب الخداع ولا يقصده. إنه يريد تكريم الإسلام وإرشاد المسلمين.

خيم الليل على الإقليم وقفل القونجي مع رفيقيه إلى البيت صامتين تحت مهرجان النجوم المتألثة في القبة السماوية. في سريره القديم عاود الإرهاق زاهدنا بشدة وانغمس في غيبوبة لم يصح منها اليوم التالي. استحال فقيرنا العائد خيلاً. حشد رؤيا ما بعد الزمن والمكان. اغتيال مولانا أبي الحجاج يوسف خلال الصلاة على أيدي من يوصف بأنه مجنون. عمليات تشييد مكثفة في السبيكة شارك فيها خليفة أبي الحجاج، السلطان محمد الغني بالله نفسه. موجة إرتفاع مباني المشور والرياض السعيد والدشار والبوابات والبروج. أطياف إنهيهار الدشار والأبواب والبروج. أشباح الجماهير في القصور. شروق نجمة ذي الوزراتي ابن زمرك، تلميذ ابن الخطيب وملاحقه. إعلان الغني بالله مطاردة الصوفية وإقلاعهم من الأندلس. محاكمة ذي الوزراتي لسان الدين ابن الخطيب غيابياً بتهمة تبنيه فكرة الحلول في كتابه "روضة التعريف بالحب الشريف". إطلاع خيال القونجي في برزحه على جلّ الكتاب في ومضة عين. إنشده ابن جعفر برؤية ذي الوزراتي لسان الدين مورط في كل مهمة سياسية ودبلوماسية وحريرية، في كل كبيرة وصغيرة من شؤون الدولة، ويدون في الوقت عينه مجلداً ضخماً في العرفان. كتاب حيرّ خيال القونجي لتنوعه وعدم عمقه الوجودي. تواجد العلامة ابن خلدون الوقور بجوار صديقه ابن الخطيب في قصر الحمراء أثناء تحرير "روضة التعريف". عودة الإبتسامة المنيرة المعهودة لمحميا فقيرنا الغرناطي الشامي حيال شبح لسان الدين مهرولاً وراء الأموال ومأخوذاً بتشبيد قصور خاصة به. ابتسامته تهكم ورأفة ومودة من يرى ذاته في برزح ما وراء السخيف والجزئي. اندلاع نار الاستعجاب في قلب القونجي هيّجتها سموم طبيعة الإنسان الوحشية العمياء التي تسربت إلى سريره لدى مشاهدة إستحالة ذي الوزراتي إلى ذي الموتين عقب إبادة ابن الخطيب في ملجأه المغربي، ونبش جثته من القبر بعدئذ على أيدي وفد الغني بالله لتنفيذ الحكم بالإعدام عليها. إشمئزاز خيال زاهدنا القونجي من المنظر وإنصرافه السعيد إلى جنة العالم العلوي.

في العصر، رجع المهندس رضوان إلى غرناطة لأداء واجباته الزخرفية بينما تأخر أبو البركات البليقي بضعة أيام في العودة إلى بلاط الحمراء مع كتب القونجي والأوراق التي لم تفارق زاهدنا أبداً منذ أن بدأ خطها في بستانه الشامي. سلم أبو البركات حفنة من الصفحات لسان الدين مع سبعة أبيات نظمها احتفاءً برفيقه القونجي عند لقيهما الأول بمنا المربة عشية الإغتراب:

أشكو إليك بقلبي لست أملكه	○	ما لم يُرد من سبيل فهو يسلكه
له تعاقب أهواء فيقلقه	○	هذا ويأخذه هذا ويتركه
طوراً يؤمنه طوراً يخوفه	○	طوراً يُقنه طوراً يُشكّه
حيناً يوحّشه حيناً يؤنسه	○	حيناً يسكّنه حيناً يحركه
عسى الذي يمسيك السبع الطباق	○	على يدك يا مُطلع الأنوار يمسيك
فيه سقام من الدنيا وزخرفها	○	مهماً أبيضه بالذكر تُشركه
عسى الذي شانته الستر الجميل كما	○	غطّى عليه زماناً ليس يهتكه

(أوردها ابن الخطيب في الإحاطة، 3، ص 236)

ثم بادر ذو الموتين بمراجعة الدفتر والإستلهام منه لتأليف "روضته"، وكرّم القونجي بذكر أخباره وعنوان ما فاض من يده ومن قلبه: "الأنوار في المخاطبات والأسرار".

الأنوارُ في المُخاطباتِ والأسرارِ

لزاهد إقليم غرناطة وفقير مزرعة الشام

الشيخ أبو عبد الله ابن جعفر القونجي

مخطوطة مكتبة دوركر بإقليم غرناطة
حققها الباحث يوسف البرودوركلي

لأنوار نور النور في الخلق أنوار
وللسرّ في سرّ المسرّين أسرار

الحلاج (ت 922/309)، الديوان.

يا عبد عكوفك على الدنيا أحسن من عبادتك للآخرة
يا عبد تراني يوم القيامة كما تراني يوم فرحك وحزنك

النفري (ت 965/354)، كتاب المخلخبات (من المخلخبة 31)

أنت المقصد الأسمى، أنت المطلب الأعلى، أنت سري في الأسرار، أنت نوري في الأنوار. أنت عيني، أنت زيني،
أنت جمالي، أنت كمالي، أنت اسمي، أنت ذاتي، أنت نعتي، أنت صفاتي. أنا اسمك، أنا رسمك، تقرب إليّ
بشهودي، فقد تقربت إليك بوجودي (...). فلولا وجودك ما كان وجودي موجوداً، حبيبي! شمّني في المشموم.
حبيبي! كلني في المطعوم. حبيبي تخيلني في الموهوم. حبيبي! تعقلني في المعلموم. حبيبي! شاهديني في المحسوس،
حبيبي، حبيبي المسني في الملموس. حبيبي! البسني في الملبوس. حبيبي! أنت المراد بي. أنت المكتني بي، وأنت المكتني
عنه بي. ما ألدّها من مغلخفة! ما أحلاها من ملاحفة.

عبد الكريم الجيلي (ت 1428/832)، الإنسان الكامل

"من خطّ شيخنا أبي البركات ابن الحاج (البلفيقي): كان هذا الرجل ابن جعفر القونجي، رجلاً صالحاً فاضلاً

متخلِّقاً، سَمِحاً، جميل اللقاءِ على قدم الإيثار على رقة حاله، مَنَّ وضع الله له القبول في قلوب عباده، فكانت الخاصة تيرُّه ولا تنتقده، والعامّة تودُّه وتعتقده، وتترادف على زيارته فئة بعد فئة. فلا تنقلب عنه إلا راضيةً، وكان جارياً على طريقة الشيط أبي الحسن الشاذلي (...). كان القونجي من أهل العافية، ورقت حاله، ولم يكن ذلك يظهر عليه لمحافظة على ستر ذلك لعلو همته، ولم يكن أيضاً أثر ذلك على منزله، بل أثاث العافية باق فيه من فرشٍ وماعون. فساعة وصول هذا الشيط إلى المريّة، قال الله يُجبرُ حالك، فحسبُها فراسة من هذا الشيط".

ابن الخطيب، الإحاطة، 3، 234-235.

✽ على هامش المخطوطة: تدبير سبعة أسرار تطابقاً مع السماوات السبع ومنازلها.

الأنوار في المخاطبات والأسرار

"الأنوار مطايا القلوب والأسرار"
ابن عطاء الله الإسكندري، كتاب الحكم (الحكمة 55).

النور اليوسفي

﴿ باب الأسرار السبعة في الحس والخيال والجمال ﴾

"سرّ السرّ هو أنه يلد الأسرار باستمرار ويسرّ"
(البيروودوركلي)

"ولكن السرّ لا يُدرك إلا بعد أن يأكل الزمان لحم المسافر
وتنال الأيام منه نصيباً، ويأتي الأوان الذي يتحرر فيه من
أحاسيس العار والبطولة والنبالة...". (ابراهيم الكوني،
السحرة، 1، ص 428).

"تعاليم السحر تؤكد أن سرّ كل أمر في ضده، في نقيضه، في
نفيه" (ابراهيم الكوني، السحرة، 1، ص 453).

1. سرّ الحس

احترار العلماء في شأن الحواس. قوم منهم يعتبرونها كَبَلاً وعاجزاً للإرتقاء أو نافذة النفس على كثافة العالم. وقوم
قلائل منهم يرونها أداة من أدوات القلب والخيال. عند العرفاء، للحواس شأن لا بد منه في الكشف. للسمع والبصر أهمية
معرفية خاصة. السمع هو باب الكلمة وآلة الطرب لدى الخيال. البصر هو مدخل الكلمة ومجرى الصور إلى القلب والخيال. أما

اللمس والشم والذوق فتحظى بكرامات هامة لدى المرید. إنها تُقرب النفس من تجلياته تعالى. بواسطة الحواس يدرك الخيال جمال العالم وهو جمال الحق. للحواس نشاط ابداعي مستمر. تُبدع العالم في كل لحظة وهي تُدركه. تشدّد الخيال وهو يستعملها. تُلذّ النفس وهي تغتذي من مدركاتها. الذوق قاعدة العارف ومبدع الصور معاً. للذوق طاقة الكشف والإبداع والإرتقاء. نتذوق إذن نكون.

مخاطبة: يا أخي من يلتذ بالمحسوسات ذوقاً وروحاً يحيي قلبه ويمسي مبدعاً.

2. سرّ الإبداع

احترار العلماء في شأن الإبداع. فئة منهم يُنكره ويُدينه. فئة نادرة منهم يقبله ويشجعه. البعض يظنه انحراف وتحدٍ، وهو الغالب. البعض الآخر يتبناه طريقة حياة ومحبة، وهو الأقل. من يبدع يُلهم ويعطي ويخلق. من يعطي ويخلق يُفسح فضاء العالم وجماله. لا مجال للإختلاط بين خلق تعالى وإبداع العباد. الفرق فرق الملهم والملهم. قال الشيخ الأكبر: "أما الإسم الباري فمنه يكون الإمداد للأذكيا المهندسين أصحاب الاستنباطات والمخترعين الصنائع والواضعين الأشكال الغربية، عن هذا الإسم يأخذون وهو المد للمصورين في حسن الصورة في الميزان" (الفتوحات، 2، 424). من يبدع ينضم إلى حركة الإبداع الكوني ويغني وجوده والوجود. نبدع إذن نكون.

مخاطبة: يا أخي إن كنت ذا مشاعر كن مبدعاً، وإن كنت مبدعاً كن مشاعرياً.

3. سرّ الشعر

اختلف الناس في شأن الشعر. البعض يصفق له لو وجده يمدح ويرثي ويصف، والبعض يصفق عليه لو سمعه يحاكي ويقلد ويخبر، والبعض يصفق له إذا يراه يلعب ويخيل ويخلق. طائفة تبحث في الشعر عن نظم وقوافٍ وألحان. طائفة تتهمه بالكذب وتعير له سماعاً لما يحمل الحكم والأخلاق. طائفة أخرى تمارسه مفتاحاً ورمزاً وحبلة فناء. قال الشيخ الأكبر: "الشعر شعور والشعور يعني الإجمال"، وقال: "الشعر محل الإجمال واللغز والرمز والتورية"، وقال: "الشعور مع غلق الباب، والعلم مع فتح الباب"، ولذا ينتمي الشعر إلى "علوم الشعور أي الرمز والإخفاء". في رأي صاحب "الفتوحات" الشعر يبدع "أعجب الصور" بجمعه بين الضدين، و"الجمع بين الضدين لا يمكن عقلاً". [ذخائر الأعلام، 441]. منزل الشعر إذن هو القلب والخيال. الشعر تجربة لغة ووجود. من يرتكب قبلاً في الشعر ينجوه الخيال ويصيّره بهاءً. من ليس له ذوق ليس له شعر. من يشعر يبدع، ومن يبدع يشعر. نظم الشعر لامتداح الأمراء والكبار مصاب بوباء الباطل وبداء الزوال. الشعر معنى وروح وليس بمجرد كلام منظوم: "...جمال الشعر والكلام أن يجمع بين اللفظ الرائع والمعنى الفائق فيحار الناظر والسامع فلا يدري اللفظ أحسن من المعنى، أو هما على السواء، فإنه نظر إلى كل واحد منهما أذهله الآخر من حسنه وإذا نظر فيهما معاً حيراه، فما يستحق مثل هذا الشعر إلا ذو قلب كثيف، فإن اللفظ لطيف والمعنى كثيف، وإذا كان المعنى قبيحاً عند الصحيح النظر لم يحجبه حسن اللفظ عن قبح المعنى، فإن مثاله عندي مثال من يحب صورة في غاية الحسن منقوشة في جدار مزينة بأنواع الأصبغة تامة الخلق لا روح لها، فإن المعنى للفظ كالروح للصورة هو جمالها على الحقيقة" (ابن عربي، الفتوحات، 2، 394). قال رسول الله (صعلم): "إنّ منّ البيّان لسيحراً"، الشعر إذن سحر. والسحر سرّ يباغتنا. قال البدو: "كل شيء خرج من السرّ ودخل دائرة الخلق وعرفته المخلوقات بطل وهزل وصار إلى زوال. هذا مبدأ السحر الأول". (ابراهيم الكوني، السحرة، 1، 424).

السّر مسرّة. والشعر يلد الأسرار باستمرار. إن لم يبلغ الشعر وطن السحر لما ينقذ المرء من المألوف إلى الغيب، إلى المجهول. الشعر هو تذوق العالم بلا انقطاع. هو ابداع الخيال في مرآة الصور والجمال. هو تنفس القلب برثة الكلام. هو، بكلمة، إعادة كتابة العالم على الدوام. نشعر إذن نكون.

مخاطبة: يا أخي في لحظة الشعور بالتآلف والإنسجام الذكر هو أنثى والإناث ذكور.

4. سرّ النظام

اتفق الفلاسفة والعلماء في ذكر الترتيب والإنسجام والنظام. غالبهم يستند إلى النظام لوصف الخلق وترتيبه الكامل. غالبهم يفسر معني الحسن والجمال في الصور قائماً على مفاهيم النسبة والنظم والتآلف. أهل العقل والمتكلمون يعتمدون على ترتيب الخلق ونظامه دلالةً على حكمة الصانع تعالى وقدرته. البلغاء يعرفون حسن الكلام بالانسجام المتكامل بين عناصر المنظوم بأسرها. المصورون والخطاطون وأهل الزخرفة والتزيين يحسبون سرّ حرفتهم الإحكام في انتاج النسب بين الصور واحراز الإنسجام بين الأجزاء وبين الجزء والكل. يأتي في "رسائل إخوان الصفاء" [1، 252-253] في شأن "أصباغ المصورين أنها مختلفة الألوان، متضادة الشعاع، كالسواد والبياض والحمرة والخضرة والصفرة، وما شاكلها من سائر الألوان؛ فمتى وضعت هذه الأصباغ بعضها من بعض على نسبة، كانت تلك التصاوير براقحة حسنة تلمع، ومتى كان وضع وضعها على غير النسبة، كانت مظلمة كدرة غير حسنة". عند أهل الموسيقى ومنظريها حسن الألحان نابع من تناغم الأنغام وإنسجامها في إيقاع. قال الإمام الغزالي في "إحياء علوم الدين": "لله تعالى سرّ في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح حتى إنها لتؤثر فيها تأثيراً عجبياً. فمن الأصوات ما يفرح، ومنها ما يحزن، ومنها ما ينوم، ومنها ما يضحك ويضطرب، ومنها ما يستخرج من الأعضاء حركات على وزنها باليد والرجل والرأس". ولكن العرفاء يطعمون الفكرة باللجوء إلى الرمز والوجود. ولمح إليه أبو حسين الدراج [ت 932] بقوله "السمع يكشف لي عن وجود وراء الحجاب". وجاء في "رسالة السماع" لأبي عبد الرحمن السلمي: "قيل السماع تطلب مفقود أو تحقيق موجود"، ويورد كذلك في هذه الرسالة "أن السماع تجرّع الأسرار الصافية لما يرد عليها من فوائد الحق وروائده". ولعل أقصى آفاق هذه الأسرار تنفتح في روضة العرفان الأكبري. يستهل الشيخ محيي الدين ابن عربي ديوان "ترجمان الأشواق" قائلاً: "الحمد لله الحسن الفعال، الجميل الذي يحبّ الجمال، خلق العالم في أكمل صورة وزينه، وأدرج فيه حكمة الغيبية عند ما كونه، وأشار إلى موضع السرّ منه وعيّنهُ، وفصل للعارفين مجملة منه وبيّنه، جعل ما على أرض الأجسام زينة لها، فأفنى العارفين في مشاهدة تلك الزينة وجداً وولهاً، وصلى الله على المتجلي إليه في أحسن صورته (...).". توافي رواية لقاء حصل له بينما كان يطوف بالكعبة حاجاً، وهو لقاءه العجيب بينت يصفها بأنها "عذراء، طفلة هيفاء، تقيد النواظر وتزين المحاضر وتسرّ المحاضر وتحير المناظر، تسمى بالنظام وتلقب بعين الشمس والبهاء من العلمات العابدات السائحات الزاهدات [...] مكسنتها جياذ، وبيتها من العين السواد، ومن الصدر الفؤاد، أشرقنت بها تهامه، وفتح الروض لمجاورتها اكمامه، فنمت أعراف ازهار المعارف بما تحمله من الرقائق واللطائف...". [ترجمان، 10-11]. النظام هي أمثل النساء، والنساء هن أنقى مرآة تجلي الحق في أكمل صور ومعان. النظام هي منهل الشمس والبهاء. حسنها في خلقها وخلقتها. تستكمل ميزاتها شكلاً وروحاً. مشاهدة النظام وأنوثتها المتفشية في العالم يعني مشاهدة أسمائه تعالى في أعلى مرتبة. وقال الشيخ محيي الدين في موضع آخر: "وأعني بالنساء الأنوثة السارية في العالم، وكانت في النساء أظهر. فلماذا حبيت لمن حبيت اليه (محمد)، فإن النظر العقلي لا يعطي ذلك لبعده عن الشهوة الطبيعية" [الفتوحات، 3، 256]. إن هذه النظام لهي باب مفتوح، بطن لإنجاب المعاني والصور

والمشاعر، ماء يروي الأبصار والقلوب، نور يضيء الأيدي والعيون، أرض تنبت فيها الأشجار والزهور. ليس لديها وصف، ليس لديها وقوف. نشاهد النظام إذن نكون.

مخاطبة: يا أخي من ينوي تلذذ التناسب والإنسجام والنظام في كل منازلها وفي شتى تصوراتها عليه أن يحيي الخيال، لا محالة، على الدوام.

5. سرّ الخيال

احترار الفلاسفة والفقهاء والعلماء في شأن الخيال. وأنا محتار. طائفة تفرض على الخيال الإذعان لأوامر العقل وطائفة تطلق له السراح. لقد قوّى الشيخ الأكبر الخيال إلى حافة الهذيان وتحيير الناس. وحيرني. "فليس للقدرة الإلهية فيما أوجدهته أعظم وجوداً من الخيال" (الفتوحات، 3، 508)، قالها الشيخ ابن عربي في فتوحاته (3، 508). في مذهبه فضاء الخيال الشاسع فضاء برزخي: "البرزخ أوسع الحضرات وجوداً وهو مجمع البحرين، بحر المعاني وبحر المحسوسات، فالمحسوس لا يكون معنى والمعنى لا يكون محسوساً. وهو يجسد المعاني ويلطف المحسوس ويقلب في عين الناظر عين كل معلوم، فهو الحاكم المتحكم ولا يحكم عليه مع كونه مخلوقاً" (الفتوحات، 3، 361). ثم يذهلنا باكتشاف نخشى من قبوله: "فكل ما ندركه فهو وجود الحق في أعيان الممكنات. فمن حيث هوية الحق هو وجوده، ومن حيث اختلاف الصور فيه هو أعيان الممكنات (...). وإذا كان الأمر على ما ذكرته لك، فالعالم متوهم ما له وجود حقيقي، وهذا معنى الخيال. أي خيال لك أنه أمر زائد قائم بنفسه خارج عن الحق وليس كذلك في نفس الأمر (...). فاعلم أنك خيال وجميع ما تدركه مما تقول فيه ليس أنا خيال. فالوجود كله خيال في خيال، والوجود الحق إنما هو الله خاصة من حيث ذاته وعينه لا من حيث أسمائه (...). فما في الكون إلا ما دلت عليه الأحدية، وما في الخيال إلا ما دلت عليه الكثرة" (فصوص الحكم، 103-104). هذا على مستوى الخيال المطلق. أما الخيال المتصل، فإنما القلب هو مسكنه ومحيطه. فيه وبه فقط يمكن الجمع بين الضدين وتلقي الإلهام وانعاش الإبداع. علمه "تحت النطق" ينتمي إلى علوم الذوق. إنه مفتاح عالم الغيب لا ثان له. كتب ابن عربي في صباه الأندلسي: "... فقلب العبد الخصوصي بيت الله وموضع نظره ومعدن علومه وحضرة أسرارته ومهبط ملائكته وخزانة أنواره وكعبته المقصودة وعرفاته المشهودة، رئيس الجسم ومليكه (...). وهو محل القبض والبسط والرجاء والخوف والشكر والصبر هو محل الإيمان والتوحيد، ومحل التنزيه والتجريد. هو الموصوف بالسكر والصحو والإثبات والمحق والإسراء والنزول، هو ذو الجلال والجمال والأنس والهيبة والتجلي (...)" (مواقع النجوم، 141). للخيال وللقلب قدرة التأمل في مرايا العالم والذات. الخيال مرآة خلاقة تصور وجهها، وجه الوجود، ليل نهار. فيها تزول المفارقات وتتحد المتضادات ويشرق انصهار المقابلات. في مُلك الخيال وحسب يُدرك الجلال والجمال. لكل ما سلف الخيال هو قوة المصور والتأمل والشاعر والحالم والمحب. نتخيّل إذن نكون.

مخاطبة: يا أخي من لا يستحيل خيالاً لا يشعل محبته ويتبدد في العدم، ومن لا يتسحيل محبةً لا يوسع الخيال ويتلاشى للأبد.

6. سرّ المحبة

احترار الناس في شأن المحبة. وأنا أحتار. جماعة يرونها داءً وجنوناً وهذياناً ويتفادونها لكونها مدمرة للرشد والعقل. جماعة يغامرون في لجتها مع كل مخاطرها من الثمالة والعشق والهوى حتى الهيام، ويهلكون سعاداً مصابين بوبائها. المحبة وجود، بل أتم منازل الوجود وأشدها. للمحبة أواصر حميمة بكل من الحس والإبداع والخيال والجمال. للمحبة سلطة كونية، وهذا معلوم. قال رسول الله (صلم): "إن الله جميل يحب الجمال". يفهم البعض هذا الحديث الشريف بالظاهر واليسير ويؤوله البعض تأويلاً باطيناً روحانياً. يعقب الشيخ الأكبر على هذا الحديث قائلاً: "وهو حديث ثابت، فوصف نفسه بأنه يحب الجمال، وهو يحب العالم، فلا شيء أجمل من العالم وهو جميل والجمال محبوب لذاته، فالعالم كله محب لله وجمال صنعه سار في خلقه والعالم مظهره، فحب العالم بعضه بعضاً هب من حب الله نفسه، فإن الحب صفة الموجود، وما في الوجود إلا الله، والجلال والجمال لله وصف ذاتي في نفسه وفي صنعه. والهيبة التي هي من أثر الجلال، والأنس الذي هو من أثر الجمال، نعتان للمخلوق، لا للخالق ولا لما يوصف به" (الفتوحات، 2، 114). في هذا السرّ يجتمع سرّ حب النساء وسرّ الجمال وسرّ الحواس. أوضح الشيخ الأكبر: "فشهوده للحق في المرأة أتم وأكمل، لأنه يشاهد الحق من حيث هو فاعل منفعل؛ ومن نفسه من حيث هو منفعل خاصة. فلهذا أحب صلى الله عليه وسلم النساء لكمال شهود الحق فيهن، إذ لا يشاهد الحق مجرداً عن المواد أبداً، فإن الله بالذات غني عن العالمين. وإذا كان الأمر من هذا الوجه ممتنعاً، ولم تكن الشهادة إلا في مادة، فشهود الحق في النساء أعظم الشهود وأكمله. وأعظم الوصلة النكاح وهو نظير التوجه الالهي على من خلقه على صورته ليخلفه فيرى فيه نفسه وعدله ونفخ فيه من روحه الذي هو نفسه، فظاهرة خلقه وباطنه حق". في برزخ الخيال الأحرف تنكح الأحرف وتنجب كلمات. في برزخ الخيال الكلمات تضاجع الكلمات وتلد آراء. في ماء الخيال الآراء تتزوج من الآراء وتخلق وجدان. في مرآة الخيال الصور تقترب بالصور وتجد فضاء. في السمع النغمة تغازل النغمة وتؤلف طرباً. في البصر الظل يجامع النور ويبدع بهاءً. في البصر اللون يداعب مقابله ويخلق صباحة. في اللمس اليد تلاعب الطين ويصور مثلاً. كل محسوس في العالم له جمال. كل جمال في العالم له شعور. كل شعور في العالم له روح. مع المحبة نعود إلى الأصل مسرورين ونسيح إلى حضن النظام. المحبة تجعلنا نبتسم ونطرب بالإبداع. معها ننصهر في حركة الحياة. مع فقدانها ننتيه في الظلال والجمود. المحبة شقيقة الموت التوأم. المحبة هي النهار والموت هو الليل، والعكس أيضاً. هما وجهان لسيلان الوجود لا مفرّ منهما. نحب إذن نكون.

مخاطبة: يا أخي المحبة نور إذا سرى في قلوبنا نحيا ونتذوق الجمال.

7. سرّ الجمال

احترار العلماء والناس في شأن الجمال. أما أنا، فأسرّ بإشراقه وبالهيام في مياه شمس. ثمة من يرضي بأثمار عجائب الطبيعة، ثمة من يكتفي بلمّ روائع المصنوعات، وثمة من يتوق إلى الترقى إلى مباحج الروح والنفس. هنالك من يجمع بين هذا وذاك، ومن يرتبك في الخيار بين هذه أو تلك أو هاتين. ولكن كمّ محدوداً من العلماء ربطوا بين الحس والوجود والمحبة في خصوص الجمال. يبيّن الشيخ الأكبر هذا الإشكال، ثم يعقده: "فأوجد الله العالم في غاية الجمال والكمال خلقاً وابداعاً، فإنه تعالى يحب الجمال، وما ثم جميل إلا هو، فأحب نفسه. ثم أحب أن يرى نفسه في غيره، فخلق العالم على صورة جماله، ونظر إليه، فأحبه حب من قيده النظر. ثم جعل عز وجل في الجمال المطلق الساري في العالم جمالاً عرضياً مقيداً يفضل أحاد

العالم فيه بعضه على بعض بين جميل وأجمل" [الفتوحات، 4، 269]. وقال شيخنا وأخونا ابن عطاء الله الإسكندري في "كتاب الحكم" إن "الجمال هو تجليه تعالى بوجهه لذاته. لجماله المطلق جلال هو قهاريته للكل عند تجليه بوجهه وهو ظهور في الكل". للجمال مثله مثل للخيال صفة المطلق وصفة التقييد، ومن الأول إلى الآخر يتحرك باتصال الوجود. استدعى الشيخ الأكبر ثانياً الحديث السابق الشريف: "الله جميل يحب الجمال، فهو تعالى صانع العالم أوجده على صورته، فالعالم كله في غاية الجمال، ما فيه شيء من القبح، بل قد جمع الله له الحسن كله والجمال. فليس في الإمكان أجمل ولا أبدع ولا أحسن من العالم، ولو أوجد ما أوجد إلى ما لا يتناهى، فهو مثل لما أوجد لأن الحسن الإلهي والجمال قد حازه وظهر به" [الفتوحات، 3، 449]. وأصرّ الجيلي على هذه الحكمة المدهشة بعده: "فما في العالم قبيح. فكل ما خلق الله تعالى فهو مليح بالأصالة لأنه صور حسنه وجماله. وما حدث القبيح في الأشياء إلا باعتبارات. وقولنا إن الوجود بكماله يدخل فيه المحسوس والمعقول والموهوم والخيال والأول والآخر والظاهر والباطن والقول والصورة والمعنى، فإن جميع ذلك صور جماله وتجليات كماله" [الإنسان الكامل، 1، 75-76]. أقوال هذين العارفين لا يرتاح العقل بها، بيد أنها تزرع حقول الخيال والعشق والأحلام. أعلن الشيخ الأكبر أن "جمال العالم جمال الله" وألح على أن "الأشياء، من حيث ذواتها، من غير نظر إلى كمال أو نقص أو ملاءمة طبع أو منافرة أو عرض أو وضع، لا حسنة ولا قبيحة ولا محمودة ولا مذمومة، فالحسن والقبح والذم وأوصاف وضعية وضعها شرع وطبع بحكم ملاءمة أو منافرة وناظر في كمال ونقص لا غير". وأنا أردف قائلاً: الهوى العارم للكمال خطر وخطأ. من يهرع وراءه ويسهو عن المشاعر ولطائف القلوب يهلك ويُهْلِك. في هذا السياق، أعترف ضعفي وأبوح بذوقي، إذ أنني من أهل البساتين والصنع الدقيقة، من معجبي جمال الأشياء الصغيرة. فيها أسكن، وبها أحلم. تركت شجيرات ونهيراً وبستاناً وإليها قد أعود. أنا غرناطي وفي الشرق صرتُ غرناطياً بعمق. أرى أن إجادة جمال البسيط هو أعسر إبداع وأروع. لذا أؤثر السواقي على القصور. سرّ الجمال باختصار هو أنه يجند الحواس، ويوقظ الإبداع، ويوحى الشعور، ويتجلى نظاماً متلائماً لامعاً، ويوقد الخيال والخيال يخلقه، ويدعو إلى المحبة والمحبة تستنبطه. جمال العالم والصنائع يعيش في رؤيتنا، في قلبنا، في ذاتنا. نزيد الوجود جمالاً إذن نكون.

مخاطبة: يا أخي، أعلم أن من يفرط في البحث عن الكمال غلطان، فإن مثقال من الخلل وقطرة من العيب مصدر التحابب وطبيعة الإنسان.

إلى نيروز

في ربيع زواجها،

مع كل المحبة

خوسيه ميغيل بويرتا

البيرو دوركلي

غرناطة، نوروز/نيسان 2001



المراجع

- ◉ ترجع اعادة تلوين القبة على الورق مع كل تحايط أنجم قبة العرش ورمزيتها إلى المستعرب الأب داريو كابانيلاس بالإشتراك مع الرسام الغرناطي مانويل مالدونادو: أنظر:
Darío Cabanelas, *El techo del Salón de Comares en la Alhambra. Decoración, Policromía, Simbolismo y Etimología*, Granada, Patronato de la Alhambra, 1988.
حول هذا الكتاب راجع تعليقنا بالعربية: خوسيه ميغيل بويرتا، "ملاحظات من أجل إستمتاع حسي ومعرفي بالفن الإسلامي"، جريدة "الحياة"، العدد 11922، لندن، 13/10/1995، ص 21.
- ◉ تورّد ترجمة ابن جعفر القونجي في إحاطة ابن الخطيب، تحقيق عبد الله عنان، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1973، الطبعة الثانية، المجلد الثالث، 234-236.
- ◉ ابن عربي، الفتوحات المكية، (بيروت)، دار الفكر، بدون تاريخ، أربعة أجزاء.
- فصوص الحكم، تحقيق عبد الله عفيفي، بيروت، دار الكتاب العربي، 1980 (الطبعة الثانية).
- ترجمان الأشواق، نشرة وترجمة لنيكولسون، لندن، 1978.
- ديوان ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق، تحقيق محمد علم الدين الشقيري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1995.
- مواقع النجوم، تحقيق محمد بدر الدين النعساني، القاهرة، مكتبة السعادة، 1907.
- كتاب الجلال والجمال، في رسائل ابن عربي، تحقيق محمد شهاب الدين العربي، بيروت، دار صادر، 1997، ص 24-57.
- ◉ النفري، كتاب المواقف وكتاب المخلخبات، تحقيق ارثر يوحنا أربري، القاهرة، مكتبة المتنبي، 1935.
- ◉ رسائل إخوان الصفا، تحقيق بطرس البستاني، بيروت، دار الفكر، بدون تاريخ (أربعة أجزاء).
- ◉ ابن عطاء الله الإسكندري، كتاب الحكم، اعداد وتقديم عبد الحميد صالح حمدان، القاهرة، مكتبة مدبولي، بلا تاريخ.
- ◉ ابن ليون، كتاب ابداء الملاحة وانهاء الرجاجة في أصول صناعة الفلاحة:
Joaquina Eguaras Ibáñez: *Ibn Luyun, Tratado de Agricultura*, Granada, Patronato de la Alhambra, 1988 (reed.).
- ◉ أدونيس، الصوفية والسوريالية، لندن، دار الساقى، 1992.

◉ عبد الكريم اليافي، "الجمال عند الصوفية" في بدائع الحكمة. فصول في علم الجمال وفلسفة الفن، دمشق، دار طلاس، 1998، ص 129-155.

- "الرمز الصوفي"، في دراسات فنية في الأدب العربي، بيروت، مكتبة لبنان، 1996، ص 190-224.

◉ José Miguel Puerta Vilchez, *Historia del pensamiento estético árabe. Al-Andalus y la estética árabe clásica*, Madrid, Akal, 1997.

- "La belleza del mundo es la Belleza de Dios. El núcleo estético del `irfán de Ibn `Arabi (I parte)", *Anales del Seminario de Historia de la Filosofía*, nº 17, Facultad de Filosofía, Universidad Complutense, Madrid, 2000, pp. 77-100.

خوسيه ميغيل بويرتا، "البنية الطوباوية لقصور الحمراء"، مقدمة لمطاع صفدي، مجلة "العرب والفكر العالمي"، بيروت-باريس، العدد 19-20، ص 4-63.

